قراءة نقدية في تاريخ الأنثروبولوجيا

Critical reading in the History of Anthropology

د. سعدية قندوسي
جامعة عمار ثليجي الأغواط، الجزائر
saidgad77@yahoo.fr
د. العيد قعدة
جامعة عمار ثليجي الأغواط، الجزائر
laidgadsoc@yahoo.fr

تاريخ الاستقبال: 05 / 06 / 2019 تاريخ القبول: 10 / 06 / 2019 تاريخ النشر: 27 / 06 / 2019

ملخص:

إن ظهور الأنثروبولوجيا كعلم جديد تزامن مع بداية الحركات الاستعمارية، وهو ما أدى إلى انحراف هذا الفكر عن مساره الصحيح، فتحول هذا التيار الفكري ليصبح أداة في يد الاستعمار.

فهل ساهمت الأنثروبولوجيا في إعطاء الحجة للاستعمار ؟ أم أن الاستعمار هو من أتاح ***للأنثروبولوجيا*** فرصة التطبيق في الميدان بعد اختفاء المجتمعات البدائية ؟

- **الكلمات المفتاحية:** أزمة الأنثروبولوجية- الأنثروبولوجية والاستعمار- المجتمع البدائي- أزمة المصطلح في الأنثروبولوجية- مواضيع الأنثروبولوجية.

Abstract:

The appearance of anthropology as a new science was coincided with the beginning of the colonial movements, and this has lead to the deviation of this ideology from its right track. This ideological trend has become a tool in the hand of the colonialism. So, has anthropology contributed to give the excuse to the colonialism? or, did the colonialism give the opportunity to anthropology to be applied in the field after the disappearance of primitive societies?

- ***Keywords:*** *The crisis of Anthropology– The anthropological and decolonization– primitive society– The Crisis term in the anthropological- The subjects of anthropological.*

- مقدمة

العلوم الإنسانية أحدث عهدا من العلوم الطبيعية، ومهما زاد عمرها لا نقدر لها النضج والاكتمال، بل تبدوا نتائجها قليلة مقارنة بمناهجها، لأنها تهتم بالخصائص الاجتماعية والثقافية، والعلاقات المعقدة، وبالثقافات المتنوعة، بخلاف الظواهر الطبيعية المنظمة.

وفي كثرة مواضيعها واستمرارها دليل على أنها علم يستدعي الحرص والإلمام وتواصل البحث.

فالمعرفة العلمية تراكمية وهي ثمرة الدراية والإحاطة بالتاريخ والتراث، طبعا لمعرفة القوانين التنبؤية لمستقبل الإنسانية - لا لوضع الخطط الاستراتيجية للنهب والسلب وادعاء الأحقية والشرعية – فالأنثروبولوجيا في الأساس كانت تحمل في جوهرها مبدأ إنساني أساسه المساواة ونبذ العنصرية، لأن الإنسانية وحدة واحدة في كل عصر.

وما الصورة التي نحن عليها اليوم إلا تطورا عن صورة أسلافنا، فالأنثروبولوجيا يفترض أن تكون علم الوحدة البشرية، لا حجة في يد الغربيين لتقسيم المجتمعات واستعمارها بحكم التفوق الخلقي.

لكن ينقلب في الأخير السحر على الساحر ويستيقظ الغارق في صمته، ويثوب العالم على ذنبه، لأن العلم يعلم الأخلاق لا الخبث والنفاق.

- علم الأنثروبولوجيا

إن ما يميز علم الأنثروبولوجيا عن غيره من العلوم الاجتماعية والإنسانية، أنه علم شامل يدرس الإنسان بشكل عام، فهي تنقسم إلى أنثروبولوجيا طبيعية، تدرس الإنسان في طبيعته البيولوجية، بحيث يهتم هذا الفرع بدراسة السمات الفيزيقية للإنسان، والتغيرات العنصرية والأعراق، وأصل السلالات البشرية وتغير الأجناس، فتدرس الإنسان في نشأته الأولى وأهم المراحل التي مر بها في تطوره عبر الزمن إلى أن أصبح إنسانا بالصفات التي يعرف بها حاليا، وتدرس كذلك ملامح الإنسان الحالي ومقارنتها بالملامح الفيزيقية للإنسان القديم عن طريق

دلائل الحفريات وبالتعاون مع تخصصات أخرى كعلم الآثار، وعلم التشريح، والآنثروبيومتري ...الخ.

أما القسم الثاني فيعرف بالأنثروبولوجيا الثقافية فيعنى بدراسة الجوانب الاجتماعية والثقافية للإنسان ونظرا لشاسعة هذا القسم هناك من الباحثين من يجعل الإطار الاجتماعي في الدراسات الأنثروبولوجية جزءا لا يتجزأ من الثقافة ويسمى هذا القسم بالأنثروبولوجيا الثقافية.

أما الأنثروبولوجيا الاجتماعية -كفرع مستقل- فلا يتجاوز عمره نصف قرن بالكاد وقد أوجده العلماء كي يتميز بمجال مختلف عن مجال الاثنولوجيا، ويعتبر العلامة **سير جيمس فريزر** (**sir James Fraser**) أول من استخدم هذا الاصطلاح الجديد في محاضرته تحت عنوان "**مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية** "وفي هذه المحاضرة حدد الأستاذ "جيمس فريزر" دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها محاولة علمية للكشف عما يسميه "بالقوانين العامة " التي تحكم الظواهر المختلفة في حياة الإنسان، وتفسر ماضي الظواهر لتمكن على ضوئها من التنبؤ بمستقبل المجتمعات البشرية، استنادا إلى الإدراك الدقيق لتلك القوانين السوسيولوجية العامة التي تنظم حياة الإنسان عبر الزمن، حيث يعتقد بان الطبيعة البشرية واحدة بعينها في كل زمان ومكان". **(قباري، إسماعيل. 1970. ص12)**

فحقيقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي الإسهام في دراسة المجتمع الإنساني دراسة منهجية منظمة تسند على المقارنة بين المجتمعات الإنسانية عند تكوينها، غير أن الأنثروبولوجيون ركزوا في دراستهم على الأشكال الأولية للمجتمع البدائي.

لماذا ركز الرعيل الأول من الأنثروبولوجيون على المجتمعات البدائية أو بالأحرى على الرجل البدائي ؟ هل كان توجههم هذا تلقائي بريء أوجدته رحلات المستكشفين والمبشرين أم توجه مدروس له أهداف مستقبلية (تغيير العالم) لخدمة مصالح الدول الغربية ؟

- شغف وفضول لمعرفة المجتمعات البدائية

تعتبر الرغبة في معرفة المجتمعات الأخرى من حيث الأجناس والسلالات والأعراف والثقافات هدفا أو موضوعا للأنثوبولوجيا كعلم، بل فطرة يفطر عليها العلماء في بحثهم عن الحقائق كما هو الحال عند اليونان ومن بعدهم الرومان.

يعد المؤرخ الإغريقي اليوناني "**هيردوتس Herodotus** " أول من صور أحلام الشعوب وعاداتهم وطرح فكرة وجود التنوع و الفوارق فيما بينهم من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية.....، فهو أول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبيين (حوالي خمسين شعبا حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية إضافة إلى أنه قدم وصفا دقيقا لمصر وأحوالها وشعبها" (**الشماس، عيسى. 2004، ص16**)، ومن بعده الروماني " **لوكرتيوس**" والذي خصص أبوابا لعرض فكرتي التطور والتقدم، حيث تحدث عن الإنسان الأول والعقد الاجتماعي، ونظام الملكية والحكومة ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى، وقد رأى بعض الأنثروبولوجيون أن " لوكرتيوس" استطاع أن يتصور مسار البشرية في العصور الحجرية ثم البرونزية ثم الحديدية ". (**الشماس، 2004.ص17**)

لكن الأمر لم يكن من أجل الدراسة العلمية أو وضع علاقات بين تلك الشعوب بقدر ما كان مجرد وصف من أجل نظم الأشعار واستخلاص الأفكار، بل كان هؤلاء المؤلفين كثيرا ما يشددون في وصفهم على الطبائع والسلوكات الغريبة، فاتخذوا لهذا الوصف أسلوبين، فإما تمجيد تلك الثقافات والإعجاب بها، وإما العكس.

فمثلا يقدم لمونتاني شهادة على ذلك في الفصل الحادي والثلاثون من الكتاب الأول الذي يحمل عنوان " آكلي اللحوم البشرية "- يقول من جهة : ما مفاده "والحال أن ما سمعته عن هؤلاء القوم (شعب أكلة لحوم البشر) لا يوحي إلى شيء من الوحشية ولا من البربرية، سوى أن كلا منا يطلق صفة البربرية على ما هو غير مألوف لديه، قد يبدوا أننا لا نرى غرة الحقيقة وعين العقل إلا من خلال الآراء والأعراف المرعية في البلدان التي نعيش فيها " **(لومبار، جاك.**

ب س، ص40)، ومن جهة أخرى يتلو وجها آخر من خلال قوله: " وهكذا تبدو لي تلك الأمم (الهنود الحمر) بربرية لأنها لم تكسب إلا النذر اليسير من تصنع الفكر البشري، ولكونها مازالت قريبة جدا من سذاجتها الطبيعية، مازالت القوانين الطبيعية تسوسهم، دون أن يمسها إفساد قوانينها ". (**لابورت، فيليب، وآخرون. 2004، ص23**)

ولقد ظهرت مواقف تجاه الآخر الغريب من العصور القديمة، مواقف فكرية إيديولوجية تارة تشيد بهذه المجتمعات و تمجدها كما ورد عن **لاس كساس** في نص مقتطف من رسالة حول القضاء على بلاد الهنود سنة **1522** للابلانتين يقول " أما الذين يعتقدون أن الهنود قوم برابرة، فإننا نقول لهم أنه هؤلاء القوم يملكون قرى، ومساكن، ومدن، وملوك وأمراء، ونظاما سياسيا ربما كان في بعض ممالكهم أفضل من نظامنا ... إن هذه الشعوب تتساوى في الرقي مع الكثير من أمم العالم الراقية والمدركة إن لم تكن اشد رقيا منها " (**لومبار، ب س، ص40**)، "وقد أكدت وجهة النظر تلك من قبل الكثير من الأنثروبولوجيين أمثال **كلود ليفي ستروس** أحد أبرز النياسين الفرنسيين في مقالة غدت مرجعا كلاسيكيا لأعمال الفكر لدى الطلاب إلى القول بأنه لا وجود ل"شعوب طفلة " وإن سكان استراليا الأصليين الذين يبدون لنا في غاية البدائية إنما يستمتعون بتنظيم عائلي شديد التعقيد، بحيث يستطيع المرء أن يصنف أن تنظيمنا العائلي يصبح بإزائه بسيطا للغاية" (**لومبار، ب س، ص10**)، وهذا ما حدث إبان عصر النهضة بحيث أدرك العلماء والباحثين أهمية تلك المجتمعات البدائية في فهم العالم فتسارعوا لدراسة تلك المجتمعات بعد أن تغيرت نظرتهم للمتوحش البربري فأصبح (المتوحش الطيب) بل تراجع الكثير من الباحثين عن أفكارهم الهجومية ضد البدائي،

" كما أن بعض المبشرين تراجعوا عن أفكارهم السابقة واعترفوا أن للبرابرة دينا كالراهب اليوسوعي لافيتو (في وصفه لعادات الأمريكيين البرية 1724". (**لومبار، ب س، ص35**)

بل اقتنع العديد من الباحثين والمبشرين أن تلك الشعوب إنما هي في الأصل سلسلة التطور البشري " لقد اعتبرت النظريات التي تعود إلى العصور الوسطى وإلى عصر النهضة أن

الحياة البدائية (المتوحشة) دليل على الحياة الطبيعية، وعلى الأصالة الخلقية، ودليل على النجاح أيضا.

ومن هذا المنطلق وبفضل الثورة العلمية التي مهد لها كل من " **ادم سمت وريكاردوا ومونتا كريستاين** " وآخرون عن قيمة العمل والثروة حصول الأوروبيون على شرعية الاستيلاء على ثروة المجتمعات المتخلفة أو بمعنى أدق دول العالم الثالث، بحكم تفوقهم الخلقي عليها لأن كلمة "بدائي "نفسها صارت في طريقها إلى الزوال واقعا وتصورا، اختفى اللفظ " بدائي من مفردات العلوم الإنسانية، وصارت تلك المجتمعات البدائية مجتمعات معاصرة بعد تأثرها بتقنيات الغرب وبعد التغيير الحاصل في نظمها القرابية والاقتصادية والعائلية،" إذ أن الشعوب المسماة ب" البدائية " أو " القديمة " لا تفنى أو تقع في العدم، وإنما تنحل وتذوب عن طريق الاندماج، على نحو سريع نسبيا، ضمن الحضارة المحيطة بها، وفي الوقت ذاته تكتسب هذه الأخيرة طابعا عالميا " (**بوطقوقة، مبروك.** www.aranthropos.com)

- الأنثروبولوجية والاستعمار

وجه الغرب أنظاره إلى المجتمعات الأجنبية والثقافات الأجنبية لغرض ظاهره علمي وباطنه إيديولوجي استعماري، وكان للأنثروبولوجيا يدا طويلة في ذلك، والواضح أن منذ نشأتها كعلم وضعي والمبدأ الاستعماري يراودهم من منطلق الاثنية المركزية، ويبدوا هذا واضحا من خلال مؤلفات المدرسة التطورية، "وهكذا وخلال سنوات قليلة بدأ الانقلاب على مكان يعتبر أساس الأنثروبولوجيا الكلاسيكية وفي تلك الفترة بالذات بدأ الاستعمار أيضا، وقد لا يعني هذا التوافق الزمني شيئا في البداية طالما أن إمكانية إيضاحه ليست سهلة، إلا أن ثمة مبادئ توحي بأن هذا التوافق لم يكن محض الصدفة فما لاشك فيه أن ثمة توافقا في تلك المرحلة بين الإيديولوجية الاستعمارية وإيديولوجية هذه الأنثروبولوجيا الجديدة ".

(جيرار، لكلرك. 2005. 26)

وبهذا المعنى تكون الأنثروبولوجيا بصفتها العلم المميز قد أعطت الحجة للاستعمار، ونحن إذ نقدم هذا العرض المختصر جدا عن تاريخ الاستعمار العلمي، والذي يوحي إلى فضل

الأنثروبولوجيا على الاستعمار الامبريالي ليس من أجل التأكيد على صحة ما يقال بقدر ما هو تعزيز ودفاع عن علم جديد مستقل بنظرياتها ومنهاجه يقع ضحية مؤامرة تحيكها الحكومات الاستعمارية الامبريالية.

فهل ما يحدث من تشكيك وتضليل في مصداقية هذا العلم سببه الأنثروبولوجيون المحدثون، أم الأنثروبولوجيون الكلاسيكيون بعد أن استقضت لديهم مشاعر الذنب، أم هم أنثروبولوجيو العالم الثالث بعد خروجهم من صمتهم ؟

تبدأ مشكلة الأنثروبولوجيا بتورطها مع أنظمة الحكم الاستعماري، واستغلال أمهر الأنثروبولوجيين كموظفين حكوميين، بل غدا الواقع الاستعماري يقدم لها حقلا لإجراء تجاربها وتطبيق نظرياتها، أما إذا تحولت إلى أنثروبولوجيا تطبيقية فلا يبقى لها غرض إلا الاستعمار، "ولقد أتاح الاستعمار للأنثروبولوجيا شروط عمل وتسهيلات لم تتح سابقا للباحثين، بذلك ساهم التقدم الحاصل في العلوم الإنسانية على نشر فكرة تجدد العلوم الإنسانية الفرنسية، فالإنسانية لم تعد إنسانية متميزة بتبعيتها للزمان بل بتنوعها المكاني على مر الوقت وبتعدد المدنيات التي لا يحق لواحدة منها أن تكون الوحيدة أو الفريدة.

والشعوب التي يطلق عليهم اسم المتأخرة أو " صاحبة العقلية البدائية أو ما قبل المنطقية صارت تفاجئنا بغنى مؤسساتها وسلالاتها بعد أن تخلت عن المبالغات والغيبيات التي ارتبطت بها، وقضت العلوم الإنسانية على التميز المسطح بين مجتمع عال وآخر أدنى، وعلى تقسيم العالم إلى شعوب متحضرة وأخرى بحاجة إلى التحضر.

إن الفكرة الأساسية التي غدت الاستعمار الأوروبي صارت خالية من أي جوهر ولم تعد أوروبا المدافع الذي لا يخطئ أو الراعي الشرعي للمدينة الوحيدة، لقد استطاعت أن تطور استعمارها وأن توسعه، لكنها لم تستطع أن ترفعه إلى مستوى الشرعية" (**جيرار، 2005. ص162**)، وهكذا ينتصر العلم كحقيقة معرفية فكرية بعد المتاهة التي أحاطت به، والقلق الذي لا يمكن التخلص منه، فالمشكلة بالنسبة للأنثروبولوجيا تتعلق بالحدود التي ينتهي أو يبدأ هذا العلم منها.

فتعد جدلية من يقدم حجة لأخيه: هل هي الأنثروبولوجيا من خلال أصحابها (حتى لا نقول نظرياتهم وأفكارهم) أم أنظمت الحكم الاستعماري التي أتاحت الفرصة لموظفيها الأنثروبولوجيين؟

هذا التفكير القلق الذي جاء نتيجة الاتهامات الذي يوجهها مثقفو ومفكرو دول العالم الثالث حول تواطؤ علماء الأنثروبولوجيا في تقسيم الجنس البشري إلى أولئك الذين لديهم المعرفة وهم أصحاب القرار، وأولئك الذين تجرى عليهم الدراسات ويقرر مصيرهم من قبل غيرهم، " هذا التفكير هو الذي يزعج بشكل خاص أولئك العلماء الذين ظلوا طويلا يعتبرون أنفسهم أصدقاء السكان الأصليين للبلاد التي كانوا يجرون دراساتهم عليها والذين لازالوا يعتقدون أنهم اقدر من غيرهم على فهم تلك الشعوب حتى من تلك الشعوب ذاتها، حتى أولئك الذين يجلسون على الجانب الأضعف (سياسيا) أولئك الذين يميلون إلى الأسلوب الحر في النظر للأمور يقاسون من ذلك النوع من فقد الأعصاب الخاص بهم، إلا من كون ذلك أخلاقيا أكثر من كونه منهجيا، فهم لا يهتمون فيما إذا كان هذا البحث الانثروبولوجي علما أم لا، بقدر اهتمامهم بكون ذلك البحث أخلاقيا أم لا". (**غيرنز ، كليفورد. 1985. ص123**)

أدى تنامي الاتجاهات التحررية في الفكر الانثروبولوجي، في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، إلى تراجع توظيف الاثنولوجيا لخدمة الأهداف السياسية، أيا كانت طبيعة دراساتها أنواعها، ونشأ بدلا من ذلك تخصص جديد يعرف بـ" الأنثروبولوجية التنموية "حيث يقوم الباحثون الأنثروبولوجيون بتقديم خبراتهم المعرفية (النظرية والميدانية-التطبيقية)، في خدمة المشروعات الاقتصادية والاجتماعية، أي أن نتائج الدراسات الأنثروبولوجية التطبيقية أصبحت توظف لخدمة الدول النامية في عمليات التغيير التنموي المخطط...وهذا ما دفع الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية إلى تشكيل لجنة في عام **1968**، لبحث المسؤوليات الأخلاقية التي يجب أن يتحملها الباحثون الأنثروبولوجيون، تجاه المجتمعات التي يقومون بدراستها ".

(بوطقوقة، مبروك. www.aranthropos.com)

كان هذا مبررا وجيها لظهور تيارات جديدة في الأنثروبولوجيا المعاصرة تنادي بالقضاء على الإيديولوجية الاستعمارية وترك الشعوب تقرر مصيرها وتتخذ مسؤولياتها خاصة بعد أن أصبح بإمكان الانثروبولوجي الإفريقي الدفاع عن ثقافته وتبرير قيمها وممارساتها السائدة.

فمثلا تعتبر مؤلفات الشيخ " **انا ديوب**" من السنغال أحد أهم الآثار التي تناولت بالنقد الإيديولوجية الفكرية وبشكل أخص التطورية ذات الخط الواحد، بحيث أعطى منحى آخر يختلف تماما عن ما جاء به الغربيون في تطور المجتمع ". (**جيرار، 2005. ص ص170-171**)

فالفكر الأنثروبولوجي لا يوجد فقد في أذهان الغربيين، بل العلم مستقل بذاته وليس حكرا على أحد، ومهما شكك في مصداقية هذا العلم لا يمكن إقناع المهتمين به، لأن الاتهامات تقع على من نكلوا واستغلوا هذا العلم لغرض براغماتي، فالعلم ذو حدين ضار إذا استغل لغرض تدميري، ونافع إذا كان فيه خيرا لمصلحة الجميع.

- أزمة الموضوع في الأنثروبولوجية

" لقد اعتاد علماء الأنثروبولوجيا على تلقي أسئلة ، كما يسألون أنفسهم حول كيفية اختلاف ما يقومون به هم من دراسات عن تلك التي يقوم بها علماء الاجتماع والمؤرخون وعلماء النفس، بل وحتى علماء السياسة. وعلماء الأنثروبولوجيا إزاء ذلك لا يزيدون في إجابتهم على ذلك عن قولهم " إن هناك فعلا تشابها بين عملهم وعمل أولئك العلماء الآخرين، وتغطي محاولات تعريف الأنثروبولوجيا تعريفا صحيحا مختلف المجالات ... ولكن أيا من هذه التعريفات لا يبدوا كافيا" (**كليفورد، 1985. ص118**)، فمن حظ علم الأنثروبولوجيا أنه علم واسع النطاق بحيث لا تجد ممن يهتمون به ويمارسونه من يعرف تماما ماهيته. فإدراج هذا العلم كتخصص أكاديمي في الجامعات الغربية لم يكن بالأمر اليسير، " فإكسفورد في ذلك الوقت لم تكن الجامعة التي ترحب ترحيبا حارا بعلم جديد ينادى به، ويحكي لنا جانبا من التراث الشعبي المحلى كيف سعى تايلور لإقامة بعض العلاقات مع القائمين على أمور الجامعة كي يعترفوا بمدرسته الفكرية الجديدة هذه، وكما حدث فقد بدأ بتقديم منهج أحسن إعداده إلى السلطات الأكاديمية وبعد الاطلاع عليه أرجعوه إليه طالبين منه أن يضيق من دائرة الموضوع بعض الشيء، وعاد إليهم

بعد ذلك بمنهج أضيق دائرة من المنهج الأول، ولكنهم عادوا ثانية يطالبونه أن يوسع منه بعض الشيء، وهكذا وجد نفسه إزاء موضوع يطلب ولاة الأمر أن يكون " أضيق دائرة " وأوسع دائرة "في نفس الوقت ، الأمر الذي يمكن أن نطلق عليه اسم معضلة تايلور، وحقيقة الأمر لو افترضنا أن طالبا طلب منه أن يعطي معلومات "على سبيل المثال لا الحصر "عن الأدوات المصنوعة من الصوان في العصر الحجري ، وتشريح الحيوانات الرئيسية (رتبة الثدييات التي تشمل الإنسان) وطبقة المنبوذين في الهند و المصطلحات الأسرية عند قبيلة الأماها من "الهنود الحمر"، والمراكب البولونيزية، وعلم الأديان المقارن وكلها موضوعات في علم الأنثروبولوجيا، لأدركنا المعضلة التي وقع فيها تايلور والتي وقعت فيها إدارة الجامعة". **(غودفري، لاينهاردت. 1985. ص135)**

إن ما يميز علم الأنثروبولوجيا عن بقية العلوم أنه علم يبحث في الزمان والمكان، والعديد من الدراسات تعكس المواضيع الكثيرة التي قدمها رواد التطورية في مختلف الميادين "تطور المجتمعات، مراحل تطور الإنسان، والتطور في النظام القرابة، والنظام الاقتصادي، نظام الأسرة ...الخ) ولم تحصر الدراسات في حقبة أو عصر معين بل يمتد الفكر الأنثروبولوجي ليشمل حتى المجتمعات المعاصرة، ومعالجة حتى اكبر القضايا الإنسانية المطروحة حاليا، ورغم ما قد تحمله الدراسات الأنثروبولوجية الكلاسيكية الحديثة من أخطاء أو شكوك -وبطبيعة الحال هذه ليست معضلة الأنثروبولوجيا فحسب - بل يبدوا أن مؤرخي هذا العلم سيقعون فيها آجلا أم عاجلا.

فعلم الأنثروبولوجيا يتميز عن بقية العلوم كونه العلم الوحيد الذي لا يصنف بل هو مجموعة من العلوم ينظر إليها من وجهات نظر مختلفة " فعلم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا الطبيعية وعلم الأنثروبولوجيا الثقافي والاجتماعي وعلم اللغة الأنثروبولوجي كونت كلها في التقائها علما يعرف بالأنثروبولوجيا، فلا غرابة في عدم اتفاق هؤلاء الأنثروبولوجيون على تعريف واحد دقيق، عدا أنه العلم الذي يدرس الإنسان من جوانبه الاجتماعية والثقافية والبيولوجية، مع اختفاء الدقة في ذلك " فالذين يراقبون سلوك الفرد والذين يعيدون صياغة الأساطير على شكل معادلات رياضية والذين يقيمون العلاقة ما بين تعويد الطفل على الذهاب إلى دورة المياه،

ونظريات تكون الأمراض، والذين يفكون أسرار الهيروغليفية، والذين يصيغون نظم صلة القرابة إلى أشجار أنساب نجد من قراءتها أنها تنتمي إلى قبائل الاسكيمو " كل هؤلاء يطلقون على أنفسهم اسم علماء الأنثروبولوجي، والشيء ذاته يقول به أولئك الذين يحللون أنغام الطبول الإفريقية، والذين ينظمون تاريخ الإنسانية بأكملها في مراحل تطورية .. "(**لاينهاردت،1985. ص117**)، إضافة إلى ذلك التحليلات المعاصرة للقضايا الإنسانية المعاصرة، ويؤكد العصر الحالي تطور الأنثروبولوجيا التي انتقلت باطراد من دراسة الشعوب إلى دراسة الموضوعات.

فتنوع المواضيع التي يهتم بها الأنثروبولوجيون مازالت في تزايد، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالدراسات العلمية للخصائص الاجتماعية والثقافية للإنسانية بمجملها وما تفرزه الحضارة من أزمات وحروب وفقر وجوع، وطالما أن أساليب وجود و فعل بشر معينين تطرح مشاكل على بشر آخرين، سيكون هناك حيزا للتفكير والتأصيل بشأن هذه الاختلافات، التي ستمثل على نحو متجدد دائما مجالا للدراسات الأنثروبولوجية ".

(بوطقوقة، مبروك. www.aranthropos.com)

فتنوع المواضيع بلغ حدا يوحي إلى ظهور تخصص متصاعد يوحي بغد مشرق يقول في هذا الصدد **كليفورد غيرتز** "حقيقة أن التوقعات من جانب قد تكون توقعات طموحة، وبالفعل كانت التوقعات عند ظهور النظرية البنائية طموحة، والهموم من جانب آخر هموم كبيرة، ومع ذلك فإن ميدان الأنثروبولوجيا الذي تدفعه التطورات الفنية الحديثة في اتجاهات متضادة والمنقسم على نفسه وفق خطوط تقسيم لفروعه رسمت بصورة اعتباطية سيئة والذي تحاصره العلمية المتزايدة من جانب، ولوي الأيدي من نوع متقدم من جانب آخر والذي يجري حرمانه بصورة مضطردة من موضوعاته الأصلية في عزلته من ميدان البحث، فإن ميدان الأنثروبولوجيا هذا يبدوا أنه لم يبق دون أن يمسه شيء فحسب، ولكن الأكثر أهمية هو أن الفكر الأنثروبولوجي في تعريفه قد امتد إلى ميادين وميادين كثيرة من الفكر المعاصر ويبدوا أننا نحن علماء الأنثروبولوجيا قد نجحنا في تهادينا، فقوتنا تكمن في الفوضى التي نحياها ".

(كليفورد، 1985. ص125)

تحظى الأنثروبولوجيا بمكانة أعلى مما حظيت بها العلوم الأخرى، ومن الدلائل ما يشير إلى كثرة روادها وتنوع مواضيعها وشمولية أفكارها، ووضوح مصطلحاتها رغم ما يذاع من قبل المؤرخين الأنثرولوجيون والمناهضين لها من ترهات وتفاهات تمس بنظرياتها ومصطلحاتها.

- أزمة تحديد المصطلح في الأنثروبولوجية

عيب عن الأنثروبولوجية أنها علم يفتقد للنظريات والمصطلحات العلمية الخاصة، أما عن غياب المصطلحات الخاصة بعلم الأنثروبولوجيا، فمن جهة تعاني معظم العلوم خاصة الاجتماعية منها من أزمة تحديد المصطلح ولم تتحدد معظم المصطلحات فيها تحديدا واضحا رغم جهد العديد من العلماء، ومن جهة أخرى نشير أن كل من " **ايفانز بريتشارد وراد كليف براون** " اهتما بقضية تحديد المصطلحات الأنثروبولوجيا، " أما راد كليف براون فقد عاش على طموح أن يعتبر هذا العلم بمثابة فرع من فروع العلوم الطبيعية بانضباط مفرداتها وتحديد مصطلحاتها " (**دياب، محمد حافظ. 1977. ص41**)، ورغم هذا يقول " إن إحدى الخصائص الهامة لأي علم من العلوم - بعد أن يتعدى مرحلة التكوين الأولى - هي وجود ألفاظ فنية يستخدمها الجميع للدلالة على معنى محدد، ولكن يؤسفني القول أنه على أساس هذا المحك تبدوا الأنثروبولوجيا الاجتماعية علما لم يتم تكوينه بعد، ومن هنا يتعين على كل باحث أن ينتقى الألفاظ من التعريفات ما يراه أكثر ملائمة للتحليل العلمي ". (**دياب، 1977. ص41**)

أما " **ايفانز بريتشارد E.Pritchard**" فيقول " قد يكون في مستطاع دراسي الأنثروبولوجيا أن يدخلوا كثيرا من المصطلحات الجديدة أو أن يعطوا الكلمات العادية معان فنية محددة، ولكن إلى جانب حمل زملائهم على قبول هذه المصطلحات والموافقة عليها، فإن القيام بذلك العمل على نطاق واسع سوف يملأ الكتابات اللأنثروبولوجية بلغة ومصطلحات خاصة لا يفهمها غير العلماء المتخصصين، ولو كان لنا أن نختار بين إبهام لغة التخاطب اليومية وغموض اصطلاحات المتخصصين، فإنني أفضل ولا شك أهون الضررين أي اللغة العادية، ذلك لأن موضوع الأنثروبولوجيا يهم الناس جميعا وليس العلماء المحترفين وحسب ".

(دياب، 1977. ص40)

فلا علاقة إذا بين اكتمال العلم ونضجه وبين تحديد المصطلحات وتدقيقها، شأنه شأن كل العلوم الاجتماعية تعاني أزمة في تحديد المفاهيم رغم اكتمالها، أما استعارة المصطلحات من مفردات المنهج التجريبي للعلوم الطبيعية هو ما زاد المفهوم غموضا وتشويها، وفي هذا الشأن يرى "**مالينوفسكي**" وبعد تجربته العلمية الأنثروبولوجية في "جزر التروبريوند" والتي عاش فيها أربع سنوات، " أنه من الصعوبة بما كان العثور على مرادفات لفظية حرفية لعبارات كان يستخدمها الأهالي، ولذا يعتقد "**مالينوفسكي**" أنه من العسير ترجمة ألفاظ لغة إلى لغة أخرى، وكلما اتسعت الشقة بين ثقافتين متباينتين زادت الصعوبة في العثور على مرادفات عبر هاتين الثقافتين، وتعريف الترجمة عنده هي إعادة خلق اللغة الأصلية إلى لغة أخرى مختلفة تماما الاختلاف، ومن هنا فان الترجمة ليست استبدال كلمة بأخرى بل هي في الواقع ترجمة سياقات برمتها" **(دياب، 1977. ص46)**، ربما هذا ما جعل الأنثروبولوجيا كعلم يأخذ مسارا مختلفا، وبدل أن يكون العلم والمعرفة حكرا على طبقة معينة من المثقفين فقد أتاحت الأنثروبولوجيا الاستفادة من المعرفة لعامة الناس فكثيرا ما يروق للطلبة والمهتمين من المثقفين العاديين مواضيع الأنثروبولوجيا، فالفكر الأنثروبولوجي موجود قبل أن يوجد العلم، لأن الإنسان بطبعه يتطلع لمعرفة الآخر، " ومع أن العمل الميداني تجريبي إلى حد كبير إلا أنه لا يمكن لأي باحث أن يعيد تجربة سابقة بحذافيرها، والملاحظات التي يعدها علماء الأنثروبولوجيا هي ملاحظات خاصة ولا يمكن لأحد غيرهم أن يفسرها، ولا بد لهم من كتابتها كأساس للمنافسة مع زملائهم وغيرهم الذين يهتمون بتلك الكتابات، وبذلك فهم يشكلون فكرهم الخاص بهم، ولذلك فأنه كثيرا ما يتم الجمع بين علم الأنثروبولوجيا الوصفي ونظرياته (كما أوضح ذلك كليفورد غريتز ذات مرة) مثل مكونات طبخة من لحم الفيلة والأرانب: فيل من الأنثروبولوجيا الوصفية مع نظرية ضئيلة بحجم الأرنب . وهذه طبخة لذيذة لو استطاع طباخها أن يبقي على نكهة لحم الأرنب فيها **(لاينهاردت، 1985. ص136)**، هذا لأن الأنثروبولوجي يركز على الميدان والتعايش مع المبحوثين، وكل دراسة أو تجربة عن مجتمع من المجتمعات يعد نظرية في رصيد المعرفة الأنثروبولوجية.

- خاتمة

على العموم، الأنثروبولوجيا كعلم، كان ولا زال مستمرا، سواء من ناحية تعدد وتنوع موضوعاته، أو من حيث زيادة المشتغلين والمهتمين بها من باحثين وأكاديميين، رغم ما ينسب إليها من تهم، بزعم أنها علم المجتمعات البدائية أو علم بلا موضوع، أو أنها علم يخدم الإيديولوجية الاستعمارية .

ومع ذلك فوضع الأنثروبولوجيا كتخصص في جامعاتنا لم يرق إلى المستوى المطلوب رغم التحول الفريد الذي تمر به الأنثروبولوجيا في الفترة الأخيرة، أما حال الأنثروبولوجيا في الجزائر بعد الاستقلال فيرجع لعدم اعتراف أصحاب القرار السياسي بالأنثروبولوجيا آنذاك وإقصائها من دائرة المعارف الاجتماعية والإنسانية كونها علم الاستعمار.

ثم بعد عودتها مع بداية الثمانينات وبإصرار من الباحثين في هذا المجال، شهدت انطلاقة محتشمة في بعض الجامعات الجزائرية ولازال الوضع كذلك إلى يومنا هذا، رغم الجهود المبذولة من قبل المهتمين بها، والواضح أن الأزمة لا تمس فقط جامعاتنا الجزائرية فواقع الأنثروبولوجية في الوطن العربي بات على نفس المحك.

يختلف الوضع في الجامعات الغربية، فبعد نجاحها كعلم وتخصص في الجامعات الأوروبية والأمريكية، وتحمس الطلبة الشديد لدراسة هذا التخصص في بداية ظهورها كتخصص أكاديمي - لأنه كان يؤمن عملا مضمونا بدعم من الحكومات - سرعان ما قل هذا الاهتمام وتراجع الطلبة عن تسجيلهم في هذا التخصص، بعد أن انتهت مهمة الموظفين الحكوميين في تغطية الشعوب المستهدفة بحثا و دراسة.

أما على المستوى الفكري فيمكن القول أنها استطاعت أن ترسخ جذورها وتمتد إلى مساحات أوسع في الدول الغربية مقارنة بالدول العربية، حيث مازالت الأنثروبولوجية في الوطن العربي بحاجة إلى ترسيخ ونشر الوعي المعرفي الانثروبولوجي، مع أن هناك العديد من الباحثين والكتاب ممن يحملون على عاتقهم مهمة النهوض بهذا العلم لكن نظرتنا لواقعنا لازالت ضيقة، بل نعجز حتى على البحث في أغوار التاريخ و التراث العربي الإسلامي وبقينا ننظر لواقعنا بعيون غيرنا، وندرس أولادنا نظريات غربية تحاكي واقعا مختلفا.

- **قائمة المصادر المراجع:**

1. بوطقوقة، مبروك. (08 ديسمبر). **حقل علمي واحد وأربع مدارس**. تم استرجاعه في 12 [ذو القعدة 1439]09 سا. على الرابط www.aranthropos.com .
2. بوطقوقة، مبروك. (23 افريل). **أزمة الأنثروبولوجية المعاصرة** . تم استرجاعه في [01 شوال 1439]14:15 سا.على الرابط www.aranthropos.com .
3. بوطقوقة، مبروك. (31 اكتوبر). **الأنثروبولوجيا في المجتمع الحديث**. تم استرجاعه في [ذو 05 القعدة 1439]17.30 سا. على الرابط www.aranthropos.com .
4. جيرار، لكلرك. (2005). **الأنثروبولوجيا والاستعمار**. تر: جورج كتوره. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت.
5. دياب، محمد حافظ. (ديسمبر/ جانفي 1977). **في أزمة المصطلحات الاجتماعية**، مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية. السنة السادسة. العدد 36. الجزائر.
6. الشماس، عيسى. (2004). **مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)**. منشورات اتحاد الكتاب العربي. دمشق.
7. غودفري، لاينهاردت. (1985). **تاريخ الأنثروبولوجيا**. مجلة الثقافة العالمية. العدد 24. الكويت.
8. غيرنز ، كليفورد. (1985). **التطور التدريجي لعلم الأنثروبولوجيا**. مجلة الثقافة العالمية. العدد24. الكويت.
9. قباري، إسماعيل.(1970). **الأنثروبولوجيا العامة**. منشأ المعارف. الإسكندرية.
10. لابورت، فيليب. لاتولرا، فارنييه، جان بيار. (2004). **أنثروبولوجيا**. تر: مصباح الصمد .ط1.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت.
11. لوميار، جاك. (ب س). **مدخل إلى الاثنولوجيا**. تر: قبسي حسن. المركز الثقافي العربي. بيروت.